

اللغة العربية مرآة تنعكس عليها قيم الإسلام

للأستاذ محمد عبد المالك الكفاني

(فاس)

اللغة العربية . ولا مجال للجدال في ان هذه الاقطار كانت لها حضارتها المتفاوتة ولغاتها وأصالتها القومية، كما أنه لا جدال في أنها ساهمت في بناء الحضارة العربية الاسلامية واثراء الثقافة العربية لدرجة أنها تناست أو كادت لغاتها المحلية واندمجت اندماجا كليا في كيان الامة العربية بمواطنها وثقافتها وتاريخها ، فأصبحت اليوم الامة العربية التي كانت محدودة في شبه الجزيرة العربية امة تستوعب اقطارا تمتد من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي يرجع الباحث الى تاريخها القديم فتختلف به مسارب التاريخ ما بين مجاري الحضارات الفرعونية والفينيقية والفارسية والقوطية والبربرية .

فلماذا كانت العلاقة بين اللغة العربية والدين الاسلامي بهذا القدر من التواضع والالتحام ؟ يرجع ذلك الى امرين :

الامر الاول امر يعم اللغات الانسانية ، وهو سنتها او قانونها الذي لا يتغير ، وفحواه ان اللغة هي الصورة التي تتجسد فيها قومية الامة وخصائصها الفكرية والوجدانية ، اذ اللغة مؤسسة اجتماعية او ظاهرة اجتماعية بهذا المعنى الذي يجعلها امرا ضروريا لكل اجتماع بشري بالمعنى المألوف ، وبالمعنى الذي لا يتأتى لمجتمع ايجاد التواصل الانساني الابنه ، ولا تثبت قوابله واشكاله الا بواسطته ، فكانها الكيان

يبدو لاول وهلة ان العلاقة التي يمكن ان تقوم بين الدين واللغة لا تعدو ان تكون علاقة عادية كالتي تكون بين كل الافكار او الحركات الفكرية التي تظهر في بيئة من البيئات وبين لغة تلك البيئة . وقد يكتب لتلك الافكار او الحركات من الانتشار خارج اللغة التي نبتت فيها أكثر مما يتحقق لها من الانتشار بلغتها الاصلية كعموم الافكار الفلسفية والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية . ولكن المتمعن في العلاقة القائمة بين الاسلام واللغة العربية يجدها تتجاوز هذا الحد بحيث تصبح اللغة العربية هي المرآة التي تنعكس فيها قيم الاسلام وتعاليمه وثقافته وحضارته وتتصل بها اتصال الشمس بشعاعها ، والمرآة بمنعساتها ولا يلبث الاسلام ان ينتشر خارج الجزيرة العربية فلا يدخل بلدا الا ويفرض على اهله عن اقتناع تلقائي تعاطي العربية والاندماج فيها وبالتالي التخلي عن اللغة المحلية تدريجيا . هكذا سار الاسلام وانتشار اللغة العربية جنبا الى جنب في البلاد المفتوحة .

هذه الظاهرة الملحوظة في تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية معه تؤكد التلازم القائم بينهما . فقد فتح المسلمون بلاد فارس وما وراءها فنشروا فيها تعاليم الاسلام ولغة القرآن ، لانهما متلازمان ، كما فتحوا مصر والشام وما وراء مصر غربا من اقطار الشمال الافريقي وبلاد اسبانيا، ونشروا في هذه الاقطار جميعها

الاجتماعي الحقيقي للامة بكل ما يتسع له معناه او محتواه من مضامين اخرى كالتقاليد والقيم ومناحي التفكير والوان الميول والاذواق ، كل ذلك يتجسد في اللغة كما تجسد قيم التبادل الاقتصادي في قطع المسكوكات وأوراق العملة ، فصيلا عن كونها تمكس طاقات ونزعات في النفس لا تخفى على من يتأني له ان يوازن بين اللغات على ضوء هذا الاعتبار .

والامر الثاني بهم هذه اللغة ولا بهم سواها ، وهو الدين الاسلامي ، فالدين الاسلامي بالنسبة للمجتمع المسلم هو البوتقة التي تنصهر فيها الشخصية المسلمة ، وطابعه هو الطابع العام لحقيقة الجماعة الاسلامية كما كانت او كما ينبغي ان تكون . ولا عبرة هنا بما قد يرين على هذه النفسية المسلمة في وقت من الاوقات من ادران تحجب عن عين الرائي واقع الشخصية الاسلامية هذا الدين الاسلامي كان بتأثيره العميق بالقدر الذي اشرنا اليه ، وذلك بفضل رسالته التي تلائم الفطر الانسانية ، ويفضل القراءان ذلك الكتاب السماوي المعجز الذي بلور تلك الحقائق كلها في صيفته المعجزة التي نلاحظ فيها معطين :

المعطي الاول هو مضمونه الروحي الذي يتصل بالنفس ويهيمن على الفكر ويخاطب لطائف الانسان من روح وعقل وقلب ، ويسري في كيانه سريان الشعاع في اديم المرأة . وحسبك من ذلك ان المسلم لا يخاطب في صلاته خالقه الاعلى بلغة اشرف من لغة القراءان ولا يتعبد يستقطب توجهات الروح والفكر وسبحاتهما اسمى من تعبير القراءان . لانه وحده افضل صيغة لخطاب الادنى للأعلى كما كان خير صيغة لخطاب الاعلى للادنى .

المعطي الثاني هو اعجازه اللغوي الذي ظل مناط الاحتجاج لنبوة الرسول عليه السلام وللحقيقة التي تقرها الآية : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »

على ضوء هذا التقديم يمكن الاجابة عن الاسئلة المطروحة بكل يسر ، فالعلاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية علاقة وطيدة ، اذ لولا الاسلام لما كان لهذه اللغة ان تحل محل لغات عالمية في العصر الوسيط ، وتصبح لغة ازهى الآداب الانسانية في عصر الاسلام الذهبي . وما كان اغنى امم اللاتين والهند والفرس والسريان وغيرهم عن استبدال لغة العرب في بعض حقب

التاريخ بلغاتهم . وهذه اللغة بدون الرسالة الاسلامية ليست سوى لغة امة شاعرة بلورت مشاعرها في لغتها ، وهذه ليست بالمزية التي تتغلب بها لغة على لغة ، اذ لكل امة من تلك المزية حظها الوفور بالقدر الذي يجعل كل امة تتعصب للغتها وتتماطف معها دون غيرها . ولكن هذه العلاقة السببية لا تنعكس ، بمعنى انه لا يصح القول بانه لولا اللغة العربية لما انتشر الاسلام ، لان اللغات لا تنتشر لمزايا فنية خاصة بها ، فالمزايا صفات نسبية وحظوظ مشتركة يصفها الانسان الاجتماعي على لغته ، وانما تنتشر اللغات بالافكار الجديدة والاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية ونفوذها مما تشمله الحضارة .

ولا نعتقد ان المغرب قد استعرب عبر تاريخه الاسلامي الا لما يكمن في هذا الاستعراب من تحقيق تواصل مباشر بالاسلام واندماج مع الحاملين لرسالته وانصهار في بوتقته بصورة تلقائية . والا لما كان له ان يؤثر لغة من اللغات على لغته المحلية ، وهو قد عرف دخول اللاتينية وانتشارها في الشمال الافريقي وصيرورتها اللغة الرسمية والادبية وقبلها اللغة اليونانية في فترة من فترات تاريخه ، ولكنه ظل بنجوة منهما الى ان جاء الفتح الاسلامي واذا بالعربية تحمل ذلك الاشعاع الديني والحضاري الذي لم يجد بدا من التأثير به والاندماج فيه . على أنك لو ازلت من كل لغة عالمية عامل الغلبة السياسية او الاشعاع الحضاري او النفوذ الاقتصادي لبطل طابع العالمية فيها وانحصر تأثيرها ضمن بيئتها المحدودة .

وهذا التلاحم بين العربية والاسلام له دليل ثان هو الجواب نفسه عن السؤال الثاني ، وهو ان الوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعترى لغة الاسلام الاولى من قوة وضعف في البلاد الاسلامية الناطقة بها حتى ان المستعمر الذي استولى على هذه البلاد ورام ان يطمس معالم الاسلام في مجتمعاتها باعتباره قوة هذه المجتمعات لم يفرق في نظره للاسلام بين الدين واللغة ، فحاول ان يقضي على الوعي الاسلامي السليم بضرب حصار على اللغة العربية وثقافتها والتمكين لثقافته الاجنبية حتى ينسف بذلك القاعدة الاساسية التي تقوم عليها شخصية المجتمعات الاسلامية . والواقع انه استطاع ان يحقق من مؤامراته قسطا غير ضئيل في هذا المضمار ، وذلك عندما زلزل ثقة الاجيال التي نشأت في حكمه بلغتها

استغلته اللغات والثقافات الغربية غداة سيطرتها عليها في جعلها تنتمي في اتجاهاتها انتماءات اجنبية أو تظل طافية على سطح الحياة الدولية تجرفها التيارات .

ومع ذلك فالفكر الاسلامي في تلك البلاد لم يكن له بد من التأثر بلغة القراءان كما لم تخل تلك الشعوب بحكم روحها الدينية من تعلق بالمربية وايمان بعظمتها. بناء على ذلك كله نتخلص العبرة التالية وهي انه لا نهضة صحيحة للامة الاسلامية الا بتحررها من التبعية اللغوية والثقافية والرجوع الى استجلاء اصالتها الحضارية والثقافية التي قامت على اساس الاسلام واللغة العربية .

الوطنية ، و اقام جيلا من الناطقين بلغاته منفصلين عن ثقافتهم ودينهم ، وربما استخدمهم في الاستخفاف بأصالتهم الوطنية وتراثهم الحضاري .

اما الشعوب الاسلامية غير العربية فلا يمكن تجريدتها من روحها الدينية الاسلامية لجرد انها ليست شعوبا عربية ، ولكن الذي نفترضه - مع اطلعنا المحدود على لغاتها - انها بدون العربية لا تستطيع التواصل بعمق مع الاسلام بالقدر الذي يتاح للعرب انفسهم . فلو اتيح لها ان تستعرب لكانت اقوى تفاعلا مع الامة العربية وأكثر تلاحما مع الكيان الاسلامي . وذلك ما يمكن التعبير عنه بالفراغ الديني الذي

